علم الاخلاق

لبنر

(٣) الإثآر او الانتقام

ان التنازع على البقاء بين المخلوقات العاقلة يستلزم الاعتداء ولما لم يكن هذا الاعتداء مثل اعتداء حيوان من أكلة اللحوم على آخر قصد افتراسهِ بل اعتداء حيوان على مثلهِ تنازعاً على الطعام لم يفضِ الى قتل احدهما ضرورةً ولو كان في الغالب شديداً . يعض الجوع الحيوانات فتحاول التهام كل ما تعثر عليهِ من الطعام فتتولد بينها العداوات وهذه تنتهي عادةً باضرار مختلفة الشدة . ثم ان الاعتداء يأول الى مثلهِ لمقاومتهِ . واذا كان للفريقين سلاح للهجوم استعملاهُ ولاسيما اذا كان متقاربًا اي اذا كان الحيوانان المتنازعان من نوع واحد

وكلٌ قتال انما هو سلسلة ثارات — عضة بعضة ولطمة بلطمة والغالب ان الواحدة تلو الاخرى سريعاً . هذا هو الغالب ولكن كثيراً ما لا تلوها حالاً بل تؤجل الى حين وهذا ما يسمَّى بالانتقام او الإثآر . والتأجيل اما ان يكون قصير المدة جداً فيستأنف القتال بعد راحة قليلة كأنهُ لم يؤجل واما ان يكون اياماً بل شهوراً وسنين . اذاً فمقابلة المثل بالمثل التي نسميها بالإثآر او الاخذ بالثار تفترق عن مقابلة المثل بالمثل التي يجري في خلال القتال واقترانهما تدريجيٌ لا يكاد يشعر بهِ . وسواء كان الإثآر عاجلاً او آجلاً فانهُ يعدُّ عقبة في سبيل الاعتداء اي اذا عرف قاصد الاعتداء ان اعتداءهُ يجرُّ اعتداء آخر عليهِ قصد الإثآر منهُ وثبت معرفتهُ سدًّا حائلاً دون اعتدائهِ فتمنعهُ منهُ او تعوقهُ عنهُ

وقد كان الناس في عهد همجيتهم يعتقدون ان الاخذ بالثار فرض محتمٌ عليهم . قال السر جورج غراي في كلامهِ عن اهل استراليا الاصليين ما يأتي : —

" ان اقدس واجباتهم ان ينتقم الواحد منهم من قاتل قريبهِ الاقرب وإلاَّ عيرتهُ المجائز وهجرتهُ زوجاتهُ اذا كان متزوجاً . واذا كان عزباً لم تكلهُ فتاة . وامهُ لا تكفُّ عن العويل والبكاء قائلة ليتني لم أَلد ابناً ساقط الهمة مثل هذا . وابوهُ يحتقرهُ ولا يثني عن توبيخهِ وتعنيفهِ "

وقال برتون في بعض قبائل اميركا الشمالية " ان شدة ميلهم الى الاخذ بالثار يضرب بها المثل وبغضهم قبيح لا يُدانى . فاذا لم يستطيعوا الانتقام من المعتدي انتقموا من البريء في

قومهِ لتشابه في الجنس او اللون بينهما "

وقال آخر عن قبيلة من اميركا الجنوبية " لقيت رجلاً من قبيلة جيانا اشبه في ان رجلاً من احدى العائلات سمّ قريباً لهُ . وسمعتهُ يقول ان انتقامي لم يتمّ اذ لا يزال رجلٌ من تلك العائلة المكروهة حيًّا "

وقال آخر في قبائل جزائر فيجي " ان الفيجيّ لا ينسى عدوَّهُ حتى ساعة موتهِ ولا يصفح حينئذٍ عن مذنب اذنب اليهِ . فاذا كان يحتضر ذكر عدوَّهُ حتى تبقى عداوتهُ ارثًا لاولادهِ من بعدهِ فيقتلوهُ ولو كان واحدًا منهم "

وقال غيرهُ عن اهل زيلندا الجديدة ان من لا يأخذ بثار القتلى عندهم حسب قانونهم يعدُّ خسيسًا جبانًا

وقال غيرهُ عن قبيلة القوقس في اسيا " ان القوقس شديدو الانتقام مثل غيرهم من القبائل المتمدنة ولا بدَّ عندهم من الدم بالدم . واذا سقط احدهم من شجرة ومات قضاءً وقدرًا اجتمع كلُّ اقربائهِ وقطعوا الشجرة إربًا إربًا "

وقال بثريك "ان القتل عند العرب جرم لا يمحوهُ مرُّ زمان ولا مرُّ ندم فتراهم يتوارثون طلب الثار خلفًا عن سلف ويتناقلونهُ من الاب الى الابن ومن القبيل الى القبيل[1]

---

(١) الاخذ بالثار من شيم العرب المشهورة ودواوينهم تنبض بذكرهِ . قال قريط يلوم قومهُ

يحزون من ظلم اهل الظلم مغفرةً ومن اساءة اهل السوء احسانا
قلبت في بهم قومًا اذا ركبوا شنوا الاغارة فرسانًا وركبانا

وقال قيس بن الخطيم يفتخر بأخذ ثار جدّهِ وعمّهِ وابيهِ الخطيم

متى يأتِ هذا الموت لم يلف حاجة لنفسي الاَّ قد قضيتُ قضاءها
ثأرتُ عديًا والخطيم فلم أضع ولابة اشياخٍ جعلت ازاءها

وقالت كبشة اخت عمرو بن معدي كرب تحض قومها على الاخذ بالثار وتحذرهم من قبول الدية

ولا تأخذوا منهم اتالاً وابكرًا واتركم في بيته بسعة مظلم
فان انتم لم تثأروا وتدينمُ فشلوا بآذان النعام المصلم

والاتال والابكار الجمال . والتديم قبلم الدية . ومعنى العجز الاخير سيروا سير الاصم او الذليل

وقال تأبط شرًا

قليلُ يغوار النوم أكثر همه دم الثأر او يلقى كميًّا مسنعا

وقال ايضًا

فادركت الثار منهم ولما بقيَ ملحين الاَّ الاقلُّ

ملحين اي من الحنين

وقال برتون عن سكان شرقي افريقية " ان الاثار خلق تسلط عليهم كما يستدل من الحروب الطاحنة التي تثيرها قبائلهم بعضها على بعض "

فيرى مما تقدم ان الاخذ بالثار يعدّ واجباً ادبياً سواء كان ذلك صراحة او ضمناً

وكان الاقدمون ينسبون الى آلهتهم حب الانتقام . ورد في كتاب الهنود الديني المسمى ريج فيدا " ان الاله اجني يبتلع اعداءه ويمزق جلدهم ويقرم اعضاءهم ويطرحها امام الذئاب لتنهشها او امام العقبان الناعبة لتنتهبها " وكانوا يدعون الى الآلهة في صلواتهم ويقولون " أيها الالهان اندرا وسوما احرقا الركنيين وأبيداهم ودوسا ايها الثوران الشعب العائش في الظلام . واحصدا الجانين واختناهم واقتلاهم وبدّداهم واذبحا الشرهين النهمين . وانهضا معاً لمقاتلة الشيطان الرجيم . وليحترق كما يحترق الذبيحة في النار وانزلا غضبكما الابدي بالقوم اللؤماء "

وهكذا نرى العبرانيين ينسبون التقمة الى الههم ويفعلون ذلك . ورد في سفر التثنية (ص ٣٢ ع ١٩) قوله " نحو ذكر عماليق من تحت السماء " (والمقام مقام امر) فلبي شاول وصمويل هذا الامر و بالغا في اتمامه حتى ذبحا العمالقة ومواشيهم كلها (ولما استحيا شاول مما نزع الملك منهُ) وكان الآباء يخلفون الانتقام والاخذ بالثار ميراثاً لاولادهم . فان داود الملك اوصى ابنهُ سليمان بان لا يعفو عن ابن رجل لعنهُ قائلاً " وأحدر شيبتهُ بالدم الى الهاوية " (مل ١ ص ٢ ع ٩)

ويضيق بي المقام لو شئت تفصيل ما كان اهالي اوربا عليه من هذا القبيل في العصور الوسطى وانما اقول ان الاخذ بالثار كان فرضاً لازماً عندهم كما هو عند المتوحشين في ايامنا . واذا خمدت روح الانتقام في صدور الرجال كان النساء يروّحنها بالحضّ والتحريض . وما عصر الفروسية سوى عصر سداد الضغينة ولحنة الاخذ بالثار

وقال المتلمس

فمن طلب الاوتار ما حزّ أنفهُ قصيرٌ وخاض الموتَ بالسيف يهبسُ

وقال المهلهل يمدح قومهُ التغلبيين

لا يرقدون على وترٍ يكون لهم وان يكن عندهم وتر الصدى رقدوا

وحرب البسوس التي دارت رحاها بين قبيلتين اخيتين هما بكر وتغلب مدة اربعين سنة حتى كادتا تتفانيان الواحدة الاخرى انما قامت سوقها طلباً بثار كليب اخي المهلهل من قاتلهِ عمرو بن مرة البكري الملقب بجساس . وغنيٌّ عن البيان ان الحروب التي كان الثار غايتها كانت في زمن الجاهلية ايام كان العرب اقرب الى الفطرة — أروح منها في الاسلام

اما العصور الحديثة فانهُ وان تكن خصومات اهلها اقلَّ عدداً واطول فترة لا يزال لروح الانتقام القديم اثر في الصدور . فانك تسمع كلَّ يوم بالمبارزات بين الافراد في مدائن اوربا المختلفة . ومن اعظم الادلة على وجودها بين الجماعات تشوق الفرنسويين الى محاربة الالمانيين اخذاً بالثار عما نالهم منهم في الحرب السبعينية حتى ان دعاة الحرية ورافعي رايات المساواة والاخاء لم يستنكفوا سعياً الى هذا الغرض من مدح القيصر المستبد بأمره وعقد محالفتهم المشهورة معهُ . فكأنهم يقولون اننا لسنا اقلَّ حباً للحرية مما كنا عليهِ ولكننا نحب الانتقام اكثر منها

وبينما كانت طوائف الهيئة الاجتماعية تنمو وتتوحد كانت كتبها تشير احياناً الى عواطف وتصورات تخالف ما تقدم ويمكن ان تعدَّ نتيجة تداخر الاميال الحربية لوقوعها في زمن كانت الهيئة الاجتماعية فيهِ اهدأ حالاً واقلَّ قلقاً . فقد جاء في كتاب مانو الهندي قولهُ " لا تجرح احداً ولو أثار غيظك ولا تؤذ بفكر او فعل ولا تفه بكلمة تؤلم بني جنسك " وقولهُ " لا تعامل احداً بالازدراء والاحتقار وتحمل بالصبر الكلام البذيء ولا تقابل الغاضب بالغضب بل بارك من يلعنك "

وجاء في كتاب آخر " عدم الاضرار باحد من الناس حتى الاعداء رأس الفضائل "

وقيل في كتاب للفرس القدماء كتب في القرن السابع " لا تظنَّ ان قيمة الانسان شجاعتهُ وقوتهُ فقط . فاذا تنزهت عن الغضب وصفحت ففيتك لا تثمَّن "

وجاء في احدى حكايات سعدي قولهُ " اأصابك ضرٌّ فاحتملهُ ونقِّ نفسك من الزلَّة بالصفح عن ذنوب الغير "

ونافى حافظ في ذلك فقال " تعلَّم من الصدقة الشرقية ان تحبَّ اعداءك وتذخر مع اللآلىء تلك اليد التي تنيلك الشرَّ والويل . واسلم من كبرياء النعمة الدنيئة وزيِّن بالجواهر المعصم الذي مزَّق جانبك "

وقال لاوتسي الصيني " جاز الضرَّ بالمعروف "

وقال منشو " الرجل الصالح لا يذخر الغضب ولا يكرهُ اخاهُ بل يعاملهُ باللطف والحب "

وقال كنفوشيوس " وماذا تقول في مقابلة الشرِّ بالاحسان . وبمَ تقابل الاحسان اذاً . جاز الشر بالانصاف والخير بالخير "

ونرى في اواخر عهد تمدن العبرانيين تضارباً في الآراء والتصورات من هذا القبيل فبينما نرى يشوع بن سيراخ يغبط أيَّا " خلَّف منتقماً من الاعداء " (ص ٣٠ ع ٦) نراهُ

في موضع آخر ينهى عن الحنق حيث يقول " اذا ملك القريب في شيء فلا تحنق عليهِ " (ص ١٠ ع ٦) وفي هذا النهي جرثومة المبدإ الادبي الذي بنيت الديانة المسيحية عليهِ بعد ذلك بعدة قرون.

هذا ويصعب ان يجرّد من الحقائق المتقدمة برهان على ان انحطاط روح الانتقام والاخذ بالثار ونموّ روح الصفح والغفران مصاحبان لانحطاط روح الحرب وتوّ روح التعاون السلمي وسبب الصعوبة ان روح الحرب وروح السلم كانا متلازمتين في كلّ زمان ومكان على نسب مختلفة . ولكننا نزيد على الادلة العمومية المتقدمة ادلة أخرى نأخذها من الهيئة الاجتماعية الحاضرة فنقول

ان تضاءل العائلات في كل امة من امم اوربا العظمى زال بقلة اسباب الشحناء بين الامم المختلفة وبزيادة اسباب الاخذ والعطاء وقد كان اسرع الى الزوال حيث كانت الصناعة والتجارة اسرع الى الظهور اي بيننا . وهناك امر آخر ظاهر عندنا وهو زوال روح الانتقام من بين الافراد عما يدر من اهانة الواحد للآخر خلافاً لما هي الحال عليهِ في سائر اوربا حيث الجيوش ضخمة بالنسبة الى جيشنا والميل الى الحرب اعظم واعمّ بالنسبة الى ما هو عندنا . وقد انحطّ الميل الى الانتقام والاخذ بالثار بيننا الى حدّ انهُ اذا اظهر المعتدى عليهِ عداءً مستمرًّا للمعتدي قابل الناس عملهُ بالاستهجان بدلاً من الاستحسان لان الصفح عن الاساءة صار القاعدة المتبعة

لكن اذا طلبنا شاهداً على العمل بفضيلة تعدّ مسيحية بوجه خاصّ وجدناهُ بين الامم غير المسيحية . فاسمع ما يقولهُ بعضهم في وصف بعض القبائل الهندية

" وهم على غاية الصدق والامانة لا يكادون يرتكبون السرقة ولا يكادون يتخاصمون . وترى لهم صفحاً غريباً عمّن يسيء اليهم اذا أُمهلوا بعد التسرّع الى الغضب . واذا اعتدى احدهم على الآخر اسرع فشكاهُ الى القاضي ولكنهُ قلما يستمرّ في دعواهُ بل يفضل غالباً ان يحل الخلاف بالتحكيم او بالتساهل المتبادل . وهم يكرهون الجندية فلا يسلمون بالانتظام في الجيش الهندي ولو للخدمة المحلية في وطنهم "

فهذه ادلة ايجابية وسلبية على ان روح الانتقام والاخذ بالثار في كلّ طائفة من طوائف البشر هي على نسبة ما بينها وبين الطوائف الاخرى من الحروب وانهُ اذا وجد للانتقام والاخذ بالثار مسوغ ادبي من الجهة الواحدة فللصفح والغفران مسوغ ادبي من الجهة الاخرى